Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 39:2 (2004)

الأسلوبية: نشأتها ومناهجها ونماذج تطبيقاتها

إنعام الحق غازي

الحديث عن نشأة الأسلوبية يأخذنا إلى الحديث عن مناهج علم اللغة الوصفي والتي ازدهرت في بداية هذا القرن على يد عالم لغويّ سويدي فرديناند دي سوسير (١٨٥٧م — ١٩١٣م) الذي أسس دراسته للّغة على التفرقة الأساسية بين اللغة (Langue) والكلام (Parole)[١] أو ما يُسمّيه جومسكي الفرق بين القابلية (competence) و الأداء (performance)، كما أنّه أسّس منهجه على أن العلاقة بين الدّال والمدلول علاقة اجتماعية عُرفية، وعلى أن دلالة الكلمة دلالة نسبيّة لا يمكن تحديدها وتقييدها إلا في سياق لغوي معين، وبهذا التصور رَبَطَ دي سوسير دراسة اللغة بالمجتمع على أنها ظاهرة اجتماعية.

ومن الأسس المنهجية التي تقوم عليها الدراسات اللغوية ـ أو ينبغي أن تقوم ـ عند دي سوسير التفرقة بين الدراسة التزامنية "الوصفية" (synchronic) والدراسة التعاقبية "التاريخية" (diachronic)[٢].

فتأثرّ الـدراسُون بأفـكاره تأثراً بالغاً، وبدأ بعض منهم تطبيقها في مجال الأدب منهم Charles Bally[٣] أحد تلامذة دي سوسير، ثم طوّر منهجه ليوسيتزر Leo Spitzer[٤] محاولاً إزالة

---

١ – يراد بـ Langue نظام اللغة وعناصره الموجودة في مجتمع بشرى، ويُراد بـ Parole الأنماط اللغوية التي تستعمل فعلاً.

٢ – Synchronic مصطلح لغوي يُراد به دراسة اللغة في زمن معين و يُراد بـ Diachronic دراسة اللغة من الناحية التاريخية، ودعا سوسير إلى الدراسية التزامنية الوصفية للغة.

٣ – يعتبر جارلس بيلي من أبرز روّاد الأسلوبية الفرنسية.

٤ – انظر كتابه : *Linguistics and Literary History Princeton*, 1948, Princeton University Press.

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

الفجوة بين علم اللغة وتاريخ الأدب أو بألفاظ أخرى حاول سيتزر أن يُخرج عملية النقد من الذاتية الانطباعية إلى الموضوعية والمنهجية.

وشارك هذا الاتجاه اللغويون الروس والألمان والفرنسيون والإنجليز والأمريكان ولعبوا دوراً مهمّاً في تطوير مناهج الأسلوبية الحديثة أمثال: ستيفن أولمان الذي طبق المنهج الأسلوبي في الرواية الفرنسية[١]، ورومان جيكبسون و ريتشار أوهمان وغيرهم كثير.

ولعلَّ الإشارة إلى الشكلية (formalism) والبنيويّة (structuralism) هنا لا تكون خارجة عن الموضوع، فالاتجاه الشكلي الذي ظهر في الربع الأوّل من هذا القرن في الاتحاد السوفيتي السابق الممثل في مدرسة Poyaz وجمعية علماء اللغات الروس، والاتجاه البنيوي الذي ازدهر في العقد السادس من هذا القرن في فرنسا، أقول إن هذين الاتجاهين مَهْمَا اختلف جذورهما عن الأسلوبية وحتى فيما بينهما، ومهما اختلفت فلسفاتهما، يستمدّان مناهجهما التطبيقية من علم اللغة الحديث، وإن كان بعض مؤرخي النقد يرى أن التشابه بين الشكلية الروسية والبنيوية الفرنسية قوي جدّاً حيث يجعلهما اتجاهاً واحداً إلى حدّ كبير[٢].

وتختلف الأسلوبية عن البنيوية في جوانب عديدة أهمّها أن البنيوية أشمل من الأسلوبية؛ فدراسات الأسلوبية وتحليلاتها تدور حول نص أدبي دون غيره، ولكن البنيوية و مَا بعد البنيوية (Post-structuralism) ومباحثهما الفلسفية ومناهجهما العلمية تتجاوز حدود النصُوص الأدبية وتتناول بالدراسة والتحليل العقائد والتقاليد والأساطير إلخ.

ومن أهم الفروق بين الأسلوبية والبنيوية أيَضاً أن الأخيرة تدَّعي أنّها تقدر على الكشف عن كيفية تصّرف الذهن الإنساني وكيفية وصوله إلى كنه الحقيقة الموضوعية[٣] ولكن الأسلوبية لا تدخل في مجال التحدّيات الفلسفية إذ أنها تركز على التحليل اللغوي واستخلاص خصائص أسلوبية خلال ذلك. ومهما يكن من أمر فإن الأسلوبية أسبق من الناحية التاريخية من البنيوية ولهذا يقال أنه لا يمكن فهم البنيوية وما بعدها إلا بعد فهم الوسائل اللغوية العلمية للأسلوبية. وممّا لا شك فيه أن ثمار

---

١ – وعنوان كتابه: (1964)*Style in French Novel*، وكان أولمان من روّد علماء الدلالة الحديثة أيضاً.

٢ – الدكتور كوثر عبد السلام البحيري: **الاتجاهات الحديثة في النقد الأدبي**، مكتبة الإنجلو المصرية، ١٩٧٩م، ص ١٧٢.

٣ – يعتبر جاك دريدا وبارت من أبرز فلاسفة البنيوية وما بعدها، أُنظر أفكارهما وأفكار فوكو ولا كان في كتاب: *Structuralism and the Logic of Dissent* Barthes. Derrida. Foucault. Lacan. "البنيوية ومنطق الخروج على الفكر السائد" .Eve, Tavor. Bannet Macmillan, Press, 1989.

العلوم الاجتماعية والنفسية الحديثة، والمباحث النظرية التي تفرّعت عنها تلعب دوراً كبيراً في تطوير المناهج الأسلوبية.

وتختلف الأسلوبية عمّا يسمّى بالنقد الجديد أيضاً وذلك لأنها على الرغم من تركيزها على النص الأدبي لا تُخرج من حُسبانها الجوانب التاريخية والاجتماعية للّغة مطلقاً كما يفعل النقد الجديد الذي يرى نصًّا أدبياً كائناً متكاملاً في ذاته وبالتالي يتقيّد بتحليله تحليلا شكلياً تزامنياً بحتا دون اللجوء إلى أي نـوع من الاستعـانة بالجوانب الأخرى للّغة ـ فالأسلوبية الإيجابية (Affective Stylistics) كما سمّاها ناقد أسلوبي معاصر ستانلي فش (Stanley Fish)(١) لا تعتبر العمل الأدبي مجموعة من الألفاظ أو الشكل المحض (Verbal Construct) ولا تعتبره كذلك مجموعة من الرسائل (Set of Messages) أو معلومات دلالية خالصة (Pure Semantic Information) بل إنها تدور بين هذين الحدّين ويُسمّى ذلك في الأسلوبية التعامل مع الخطاب (Discourse).

إن تصور الأسلوب ومباحثه المختلفة ليس أمرا جديداً، فله جذور في تاريخ النقد الأدبي القديم، فنجد عندهم أسلوباً جيداً أو رفيعاً و آخر رديئاً، وكانوا يقصدون بذلك طريقة الكاتب لمعالجة موضوع أو فكرة(٢). ولكن الأسلوبية الحديثة مختلفة عنه في نشأتها ومناهجها المختلفة، فهي نشأت مع ازدهار علم اللغة الوصفي ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ـ ويُراد بها تطبيق مناهج علم اللغة في تحليل النصوص الأدبية.

الأسلوبية الحديثة وثيقة الصلة بعلم اللغة الاجتماعي أيضاً الذي يدرس لغات الطبقات الاجتماعية وخصائص أساليب كلّ منها، ويهتمّ بدراسة خصائص طبقة واحدة في أحوال مختلفة؛ فما هي ـ مثلاً ـ الخصائص اللغوية في كلام العمّال أثناء أداء واجبهم وما هي تلك الخصائص أثناء الاستراحة أو في البيت وما شابه ذلك من موضوعات ـ فالكاتب باعتباره فرداً من أفراد هذه الطبقات يستخدم مجموعة من الأنماط والوسائل اللغوية لكي يتمّ الاتصال بينه وبين مخاطبيه، ولهذا الاتّصال أهميّة كبيرة في اجتماعية الأدب وبالتالي لها أهميّة في دراسات الأسلوبية فالوسائل والأنماط اللغوية

---

١ – انظر مقاله في كتاب:

Issues in contemporary Critical theory a case book edited by: Barry Peter London, Macmillan 1987.

بعنوان: What is stylistics and why are they saying such terrible things about it? pp. 64-69.

٢ – *Linguistics and Literature, An Introduction to Literary Stylistics* Ramond Chapman, pp.11-12 Edward Arnold, Australia, 1975.

المعيّنة والتي يختارها الكاتب تُسمّى "Register"[1] أي "مخزوناً مسجّلاً" في الأسلوبية، فهناك "مسجّلات" كثيرة في متناول الكاتب يختار أحداً منها أو أكثر للعوامل المختلفة مثل الموضوع والمتلقيّ والموقف والجنس الأدبي وغير ذلك[2].

والأسلوبية الحديثة وثيقة الصلة أيضاً بعلم اللغة التطبيقي، ويدور معظم قضاياها حول تعليم اللغة عن طريق الأدب ونصوصه، ومناهج التدريس في هذا المجال. فخلاصة القول أن الأسلوبية وصف علمي إحصائي دقيق للغة عامَّة و للّغة الأدبية خاصَّة ويتم هذا الوصف بالدراسة لوظائف اللغة وبتحليل أنماطها المختلفة، و دور كل نمط في ضوء العلاقات التركيبية بينها.

وتؤسس الأسلوبية دراستها على مستويات علم اللّغة الحديث وهي:

١- الصوتيات Phonology: وتشمل دراسة الأصوات الصامتة والحركات الطويلة، ودراسة الخصائص العروضية وغير ذلك من الظواهر الصوتية التي لها دلالات في النص.
و إن كانت الدراسات التطبيقية من هذا النوع تقل بكثير في هذا المستوى وخاصة إذا قارنّاه بالمستوى النحوي التركيبي.

٢- الصرف والمعجم Morphology and Lexis: دراسة الكلمات والوحدات الصرفية وخاصة في ضوء نظرية الاسمية والفعلية و دلالة كل منهما.

٣- النحو والتركيب Syntax: دراسة العلاقات التركيبية العميقة ودلالتها ـ وترى الأسلوبية أن كيان النص الأدبي وخاصة الشعرى منه يقوم أساساً على الانحرافات من النحو التقليدي السائد، وهذه الانحرافات تخدم المعنى الأدبي وتظهر في صور كثيرة.

ويجدر بالملاحظة هنا أن التحليل اللغوي البحث لأحد هذه المستويات يمكن أن يتمّ على أن المستوى المدروس مستقلّ عن المستويات الأخرى للغة إلى حدما، ولكن التحليل الأسلوبي للنص في أحد هذه المستويات لا يتم إلا بالتصور الشامل والكلّي للّغة الذي يصحب هذا التحليل و يساعده في الوصول إلى استخلاص خصائص معيّنة.

---

١ - يعرف اللغويون هذا المصطلح بما يلي: "الأداء اللغوي الذي يشير إلى عناصر مميزة في المخزون اللغوي لدى الكاتب يختار من بينها لنص لأجل الظروف الخارجية له" أي الظروف الاجتماعية المرجع السابق، ص ١١٦.

٢ - *Linguistic and Literature, An Introduction to Literary Stylistics*Ramond Chapman, pp. 11-12 Edward Arnold, Australia, 1975.

ومن أهمّ الموضوعات في مجال الأسلوبية دراسة ملامح لغة أديب و مدى انحرافه عن الملامح العامة للغة و أثر ذلك في إحداث تأثير أدبي، ودراسة كيفية استخدام الكاتب للملامح العامة للّغة واستغلاله إيَّاها ومدى نجاحه في ذلك(١).

ومن الأصول النظرية للأسلوبية أن الأدب لغة وأن لهذه لغة إمكانات تعبيرية كثيرة لاحصر لها، يختار منها الكاتب لأسباب معيّنة، ويبدو دور الأسلوبي في تحليل ما اختاره الكاتب من هذه الإمكانات، ويبدو دوره أيضاً في تحليل ما تميّز به أسلوبه، وما الخصائص الأسلوبية التي برزت فيه وما الخصائص التي اختفت فيه أو قلّت وتسمّى هذه العملية "Foregrounding " في الأسلوبية.

يطرح أسلوبيون مجموعة من الأسئلة الأساسية التي تنبع منها تساؤلات أخرى ومن بين هذه الأسئلة: هل للأدب لغة خاصة به؟ أو بألفاظ أخرى: هل هناك لغة للأدب؟ أو أن كلّ عنصُر لغوي يمكن استخدامه أدبيًّا، فهم يؤيّدون المقولة الأخيرة عكس الرومانسيين الذين بالغوا في أهمية المجاز وقيمته في الأدب(٢). ومما هو جدير بالذكر هنا أن بعض الدراسين الأسلوبيين قد لجأ إلى الاستعانة بعلم الإحصاء(٣) في تحليل العناصر اللغوية كما أن بعضهم الآخر يستعين بالكمبيوتر في ذلك، و ذلك حرصاً على أن تكون النتائج أدقّ و أشمل.

دارت مناقشات حادّة جدّاً بين اللغويين والنقاد الغرب في العقدين السادس والسابع من هذا القرن حول صلاحية مناهج علم اللغة الحديث في فهم النصوص الأدبية و دراستها ووصلت إلى الدرجة أن بعضاً منهم تخلّى عن المشاركة فيها لأنها اتّجهت إلى الذاتية(٤).

ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ بل نشأ الخلاف بين الأسلوبيّين أنفسهم، فهناك من بالغ في قيمة المناهج اللغوية واعتبرها شاملاً لجميع المشاكل النّقدية وإجابةً لمعظم الأسئلة الأدبية(٥). وهناك من وقف موقفاً وسطاً وفرّق بين ما هو مفيد لإلقاء الضوء على النصوص الأدبية وبين ما هو غير مفيد لهذا

---

١ – المرجع السابق، ص ١٥.

٢ – انظر: *Language Variations and Stylistics*, AIOU, p. 143

٣ – انظر مثلاً: *Stylistics and Style*, by G. Hough, New York, 1969

٤ – انظر المقال المذكور آنفاً لراجر فاؤلر في كتاب *Issues in contemporary Critical theory: a case book*, edited by: Barry Peter London, Macmillan 1987

٥ – راجع كتاب: Leo Spitzer الذي مَضى ذكره آنفاً.

الغرض(١). وفيما يلي نحاول أن نلمّ بهذا النقاش إلمامةً سريعةً لأنه يُلقي الضوء على جوانب كثيرة من الأسلوبية وقضاياها.

يعتقد اللغويون أن هذا النشاط ـ أي تطبيق المناهج اللغوية في مجال النصوص الأدبية ـ له جدوى من نواح متعددة، يقول رُومَنْ جيكبسون Roman Jakobson موضّحاً رؤية اللغويين:

"يتكوّن الشعر من التراكيب اللغوية كما يتكوّن الرسم painting من الأشكال والصور، وعلم اللغة الحديث علمٌ عالمي شامل لدراسة التراكيب اللغوية، فلذا أرى أن تُعتبر دراسة الشعر فرعاً من دراسات علم اللغة"(٢).

فهذه الثقة البالغة التي نلاحظها في العبارة السابقة جعلت بعض اللغويين اللاّحقين يوسّع من دائرة الأسلوبية وكأنّها يُحيط جميع جوانب الأدب وتقدر على شرح أسراره الغامضة كلّها كما أنها أدّت إلى انتشار الاتجاه الأخير في الجامعات والمؤسّسات العلمية في الغرب، الحال التي سمّاها رينيه ويليك Rene Wellek استعمار علم اللغة الحديث The Imperialism of Modern Linguistics (٣) ومن أهمّ من يمثّل هذا الاتجاه: Leo-Spitzer في كتابه المعروف *Linguistics and Literary History* "الذي طبع في ١٩٦٨م علم اللغة و تاريخ الأدب" و Erich Auerbach في كتابه: *Mimesis the Representation of Reality in Western Literature* (Trans. Willard Trask 1953) "المحاكاة تقديم الحقيقة في الأدب الغربي".

فهما يريان أن المناهج الأسلوبية تتعمّق في دراستها إلى درجة أنها تستطيع أن تُلقى ضوءاً على نفسية الكاتب وميوله الذهنية، ونظرية حياته وفلسفته تجاه العالم الخارجي.

ومنهم ـ من ممثّلي هذا الاتجاه ـ من قال أن الأسلوبية تقدر على ربط الخصائص اللغوية للنّص بالجمال والتأثير اللذين يعتبران من أهمّ قيم الأدب ومكوناته ومثال ذلك: ميشيل ريفائتر Micheal Fiffaterre في كتابه *Structuralism* (Ed. Jacques Ehrman. 1966).

---

١ – انظر المقالين في كتاب: *Issues in contemporary Critical theory: a case book* edited by: Barry Peter London, Macmillan 1987,pp. 70-80.، أحدهما: لستانلي فش: ص ٦٤–٦٩، وثانيهما: لراجر فاؤلر، ص ٧٠ – ٨٠.

٢ – Style in Language edited by T. A. Sebeok, p. 350, Cambridge, 1960.

٣ – *A History of Modern Criticism*, London, 1986, p. 67.

ولكن النّقاد يرون عكس و يحاولون أن يُبعدوا هذا الاتجاه عن مجال الأدب وينظرون إليه كأنّه نقمة أخلاقية يرتكبها اللغويون[١]، ومن الأدلة التي اتّكل عليها النقاد:

أنّ علم اللغة علم له قوانين و قواعد، وأمّا الأدب فله ـ كما يقول Bateson ـ جوهر ذاتي يستحيل إدراكه و لايمكن لعلم اللغة أن يصل بمناهجه إلى الجوهر، وكلّ ما هنالك أنه يقدّم لنا تحليلات لغوية لنص أدبي قد تفيد في التعامل معه وتشرح بعض جوانبه اللغوية ولكنّه لا يقدر على أن يأخذنا إلى قلب التجربة الأدبية وعمقها[٢].

أن هناك فرقاً جذرياً بين علم اللغة والأدب وهو أن علم اللغة له مناهج تقوم على قواعد علمية دقيقة ولكن الأدب يضمّ في حضنه القيم values وهذه القيم الباطنية لن تكون في متناول المناهج العلمية[٣].

يقول راجر فاؤلر معلقاً على هذا النقاش "إنّ الفريقين لن يلتقيا أبداً"[٤] ويضيف إلى ذلك أنّهما كليهما يُناقشان هذه القضية مناقشة عامّة مستندين إلى دلالات الكلمات البسيطة دون تحديد معانيها تحديداً واضحاً، فالناقد "ديود لوج" يستخدم هنا كلمتين وهما: العلم والقيم، ولكنّه للأسف يريد منّا أن نَفهمهما على هذا التصور الساذج الذي يسود في ذهنه هو.

ومن المآخذ والاعتراضات التي وجّهت إلى الأسلوبية ومناهجها أنّها:

قادرة دون شك على تحليل النصوص واستخلاص انحرافات تركيبية Syntactic Deviation وخصائص صوتية ومعجمية فيها و دلالاتها، ولكنّها عاجزة عن تعيين عناصر لغوية تحوّل نصاً لغوياً إلى نصّ أدبي ذي فن و أثر جمالي.

وقد ردّ الأسلوبيون المعتدلون على هذا الاعتراض بأن المناهج في هذا الاتجاه تهتمّ باستخراج معطيات وتصنيفها إلى مجموعات أو بتحليل انحرافات لغوية وشرح دلالاتها ودور كل منها في إحداث الأثر الإبداعي في نصّ معين، ثم تترك المجال للنقد الأدبي ولا تدّعي الأسلوبية بأنها كفيلة لشرح

---

١ – Studying Literature as a Language, by Roger Fowler, 1984. ويوجد هذا المقال في كتاب:
*Issues in contemporary Critical theory: a case book*edited by: Barry Peter London, Macmillan 1987 pp. 70-80

٢ – المرجع السابق، ص ٧٠.

٣ – *Language of Fiction*by David Lodge, p. 57, London, 1966.

٤ – انظر مقاله في الكتاب المذكور آنفاً بعنوان: Studying Literature as a Language, p. 71 ويلاحظ أن مقاله هذا ظهر في سنة ١٩٨٤م، أي بعد أن هدأ الفريقان، وراجر فاؤلر ناقد أسلوبي بارزو له كتب نقدية كثيرة، وله معجم المصطلحات النقدية الحديثة.

جميع جوانب الأعمال الأدبية أو أنها قادرة على الإجابة على الأسئلة النابعة جميعها من النص[١] فإذا تجاوزت الأسلوبية هذه الحدود فإنها ـ دون شك أيضاً ـ تفيد من التصورات النقدية والأدبية الأخرى مثل الإبهام، والعلامة، ولكن الشيء الذي تمتاز به الأسلوبية هو عدم إصدارها أحكاماً نقدية عامة، وعدم إقامتها المفاضلات بين نص وآخر وماشبابه ذلك من أحكام انطباعية تأثرية.

اعترض بعض النقاد على موضوعية المناهج الأسلوبية، وقال إن هذه الدعوى محلّ نظر، إذ إن الميول الذاتية تتسرّب فيها أيضاً.

قد تناول ناقد أسلوبي أمريكي معاصر[٢] هذه القضية بالمناقشة واتخذ موقفاً حيّر الأسلوبيين أنفسهم فهو يقول إن معظم الأسلوبيين ظنّوا خطأً أن جميع المعطيات اللغوية التي تستخرج من نص أدبي تُساعد في دراسته دراسة موضوعية غير محايدة ففي التطبيقات الأسلوبية العملية، نحن نلاحظ أن المعطيات المستخلصة من نص أدبي لا تكون كلّها مهمّة لنا و بالتالي لا تفيد في شرح النص وتفسيره، بل تزداد المشكلة عندما نجد أنفسنا أمام عدد كبير من المعطيات، فلا نستطيع أن نفرق بين ما هو أهم و أفيد منها ـــ فنضطر إلى اختيار بعض منها، فعملية الاختار هذه أو تدخّل الأسلوبي في اختيار العناصر التي يراها مناسبة لإلقاء الضوء على النص عملية ذاتية وتلعب فيها الميول الشخصية دوراً كبيراً وليست موضوعية وصفية بحتة، وهذا مع الملاحظة المهمة أن الأسلوبية ـ على أية حال ـ أكثر موضوعية من الاتجاهات النقدية الأخرى. وينتهي ستانلي فش من ذلك كلّه إلى أن تفسير النصوص الأدبية لا يعتمد ـ وينبغي أن لا يعتمد ـ على مناهج موضوعية فقط، و إنما يستعين بما سمّاه ـ "بالطبقة التفسيرية" Interpretive Community التي تلعب دوراً كبيراً في ذلك[٣].

يعتبر راجر فاؤلر Roger Fowler من الأسلوبيين المعتدلين الذين طبقوا[٤] مناهجا في الأدب والذين ناقشوا قضاياها المختلفة، فهو في أحد مناقشاته[٥] يقترح منهجاً يصلح ـ في رأيه ـ لفهم النصوص الأدبية ودراستها، ومن أهم مميزات منهجه المقترح أن يكون شاملاً لجميع النواحي للبناء اللغوي وخاصة

---

١ – انظر مناقشة هذه القضية بالتفصيل في *Linguistics and Literature*, p. vi, Chapman, 1975.

٢ – اسمه: Stanley Fish وانظر مقاله لهذه المناقشة بعنوان: What is Stylistics and why are they saying such terrible things about it? في كتاب: *Issues in contemporary Critical Theory* pp. 67-69.

٣ – المرجع السابق ص ٦٧، ٧٩.

٤ – ومن كتبه النقدية: *Language of Literature*, 1971, *Style and Structure in Literature*, 1975, *Modern Critical Terms*, 1987.

٥ – مقاله المذكور آنفاً والذي نشر أوّل مرّة في: *Dutch Quarterly Review of Anglo American Literature*, 1984, pp. 84- 171.

لماسماه بالنواحي العملية Pragmatic Dimentions وأن يكون صالحاً لتفسير الجوانب الوظيفية للّغة ولا سيما الوظائف التي تشكّل الأفكار في نص أدبي والتي سمّاها هاليدي "الوظيفة التصورية" Ideation.

ومن الجوانب السلبية للأسلوبية والتي يعترف بها الأسلوبيون أنفسهم أنها تناسب النصوص الشعرية أكثر مما تناسب النصوص النثرية مثل الرواية، فالصعوبة في النصوص النثرية أنها تكون طويلة جداً، ويصعب اختيار جزءٍ منها يمثّل النص كله. ومما يؤخذ عليها أيضاً أنها تستخدم مجموعة من المصطلحات التي تحول بين ثمراتها و بين القرّاء المثقفين، بل وبينها وبين النقاد غير المتخصّصين في مجال علم اللغة.

هذا، وإن التطبيق للمناهج الأسلوبية يتمّ بطرق شتّى حسب العوامل المختلفة يرجع بعضها إلى طبيعة الموضوع أو طبيعة المنهج، وبعضها الآخر يرجع إلى المستوى المدروس للنّص؛ فهناك دراسات أسلوبية تركز على عنصر من عناصر اللغة وتحاول استخلاص خصائصه الأسلوبية مثلما فعل رولن ويلس Rollen Wells في بحثه: Nominal and Verbal Style أي أسلوب الاسم والفعل في اللغة الإنجليزية، ومن أهم النتائج التي وصل إليها هذا الباحث:

١- تتغيّر بُنْيَة الجملة إذا تحوّلت من الاسمية إلى الفعلية(١).

٢- تصبح الجمل طويلة باستخدام الأسماء، وتصبح قصيرة باستخدام الأفعال.

٣- الأسماء في عمومها، تكون جامدة من الناحية الدلالية، وأما الأفعال فهي التي تتحرك و تحمل دلالات عميقة.

٤- الأفعال أو في توصيل الدلالات وإحداث الإيحاءات.

٥- فالجمل الفعلية أكثر ثروة وإمكانية، ولها تأثير نفسي أقوى من الأسماء.

٦- الإبداع في الأسلوب الفعلي أصعب من الإبداع في أسلوب الاسمي.

ومن الد راسات الأسلوبية التي طبقت فيها المناهج اللغوية على النصوص الشعرية وخاصة في ضوء النحو التحويلي التوليدي: *Poetry as a Process and Pattern* by Donald Freeman Keats "To Autum" (٢). أي "إلى الخريف" للشاعر كيتس؛ الشعر: "العملية والنمط" لدونلد فِرْي مين.

---

١ - هناك مناقشات بين اللغويين والأسلوبيين حول أساس التفرقة بين الاسم والفعل، وهل هذه التفرقة موجودة فعلاً في اللغة؟ وتتفرع من ذلك أسئلة أخرى منها: ما المراد بالاسم؟ وما المراد بالفعل؟ وما تأثير كل منهما في نص أدبي، وأيُّهما أقوى في تضمين دلالات عميقة، وهذا مع الملاحظة أن كل لغة لها نظام خاص وطبيعة مختلفة في مثل هذه الأمور.

٢ - انظر هذه الدراسة في: *Essays in Modern Stylistics* edited by. Donald, C. Freeman, Methuen, London, 1981, pp. 81-89.

يركز الباحث في هذه الدراسة على التحليلات التركيبية والأنماط اللغوية وعلى الانحرافات التي توجد في هذه القصيدة، ويشرح كل ذلك في الجداول ثم ينتهي من هذا كله إلى أن الانحرافات تدل على أن الخريف هو سبب نهائي لسير الأعمال الكونية كلها، وهذا العنصر رمزي متّصل بالخيال، ثم يقول إن النحو الشعري إيقوني مُدْمَج في شكله، وللتعامل مع هذا الشكل الإيقوني المُدْمَج، و تفاعله، لا بدَّا أن نلجأ إلى محتويات القصيدة التي تمهّد السبيل إلى ذلك.

ومنها أيضاً ما كتبه: E. L. Epstein في بحثه بعنوان: The self-Reflexive artfact

The function of Mimesis in an approach to a Theory of value for literature [1] يدعو الكاتب في هذه الدراسة إلى اعتبار المحاكاة الشكلية للمحتوى مقياساً من مقاييس الدراسة للأدب، وهو يفرق بين علاقة المحاكاة الشكلية والمحاكاة غير الشكلية بالمحتوى، ويقرّر أن المحاكاة الشكلية أرفع قدراً لدراسة الأدب وقيمه ويقصد الكاتب هنا بالمحاكاة وجود خطط مماثلة في المستوى المعجمي أو اللفظي أو في أحد المستويين؛ الصوتي والنحوي، ويوضّح ذلك كله من خلال شعر بوب وملتون وحانس ويلري وغيرهم.

نأخذ مثالاً آخر ربّما يكون أوضح في هذا المجال وهو بحث: Irene R. Fairley بعنوان: Syntactic deviation and cohesion (٢) "أي الانحراف التركيبي والانسجام الداخلي". طبق الكاتب فيه منهجاً أسلوبياً في المستوى النحوي وخاصة في ضوء النحو التحويلي التوليدي المعروف بنحو جومسكي، وطبقه على بضعة قصائد لشاعر أمريكي معاصر E. E. Commings والذي دخل التاريخ بانحرافاته اللغوية المشهورة التي قد تبدو غريبة جداً.

ومن القصائد التي حلّلها الباحث قصيديه بعنوان: "Me up at does" وهي:

Me up at does
out of the floor
Quietly stare
a poisoned mouse
still who alive
is asking what
have I done that
you would't have

---

١ – المرجع السابق، *Essays in Modern Stylistics* edited by Donald, C. Freeman, Methuen, London, 1981, pp. 166-179.

٢ – المرجع السابق، ص ١٢٣– ١٣٧.

ويلي مضمون هذه الأبيات:

عندما صحوت من النوم حسب عادتي رأيت فأرة وقد أجبرت على أكل السمّ، و كانت تتنفّس أنفاسها الأخيرة وتحدِّق في وجهي بكل صمت، وتوجه سؤالها إليَّ:

ماذا ارتكبته من الذنوب التي لم ترتكبها؟

فيقول الكاتب إن الشاعر دُهش من هذا المنظر الغريب، وهو منظر الفأرة المسمومة وهي في وجهه فلهذا ظهر تعبيره عن هذا الموقف Me up at مخالفاً للعرف اللغوي السائد ففيه تقلبات تركيبية كثيرة غير مسموحة في قواعد اللغة التقليدية وله دلالات عميقة.

ولكن الكلام الذي خرج من فم الفأرة المسمومة ـ وهو كلام ذو خيال قوي مؤثر ـ بدَا في صورة تراكيب لغوية معيارية واضحة:

What I have done that

you would't have

ولهذا الالتزام بالقواعد دلالة أيضاً، فالفأرة على وشك الموت وقد تمكّنت من السكون المدهش الذي يخلو قلب الشاعر منه، ثم يستمر الكاتب في تحليل الانحرافات النحوية قائلاً.

إن تغيير موقع المجرور Me up at "وكان المفروض حسب القواعد أن يقول at me" والتغيير الموقعي للظرف Still who alive "وكان يجب أن يقول who still alive" يعتبر كل ذلك من أخطاء لغوية، ولكنها، في الوقت نفسه، مثيرة للغاية وتخدم هدفاً. وانظر أيضاً إلى انحراف الفعل المساعد "does " الذي لا يوجد له في الظاهر موقع من الجملة، فكونه هكذا يحمل احتمالات وظيفية متعددة منها. التأكيد يعني: إن الفأرة المسمومة تتفرّس بصمت. A poisoned mouse does quitely stare ومنها أيضاً: الاستفهام أي: هل الفأرة المسمومة تتفرّس بصمت؟ Does a poisoned mouse quitely stare? ومن الانحرافات النحوية في هذه القصيدة، تأخير الفاعل وهو A poisoned mouse وذكره في وسط القصيدة، فوجود الفاعل في مركزها يدل على مركزيته في الدلالة أيضاً ـ وتأخيره يفتح مجالاً واسعاً للانحرافات النحوية الأخرى قبله وبعده وهي مستساغة لأنها متماسكة ومنسجمة في داخلها وتخدم أهدافاً بعيدة. وينتهي الكاتب من هذا التحليل إلى أن انحرافاته ليست لأجل الانحراف كما ظن ذلك جومسكي، بل هذه الانحرافات لها خصائص أسلوبية عميقة الأثر وبعيدة المدى.

هذا، وإننا يمكننا أن نلاحظ أشياء أخرى في هذه القصيدة، يمكن أن تندرج تحت الدراسة الأسلوبية من ناحية أخرى وهي مثلاً: عدم اهتمام الشاعر بوضع علامات الترقيم في القصيدة، بل وفي جميع قصائده وعدم اهتمامه بها شعورياً يفتح مجالاً للدلالات والإيحاءات.

الانحراف في كتابه كلمة I "أنا" فكتبه بخط صغير i، الذي يجرّنا إلى دلالات جانبية كثيرة منها مثلاً: كأن الفأرة تريد أن تقول: إنها ضائعة وليست لها مكانة وقيمة في هذا العالم مع أنها لا تختلف كثيراً في الأفعال والأعمال عن الإنسان وخاصّة الذنوب التي يرتكبها الإنسان. وأضمّ المثال التالي إلى الأمثلة التي عرضتها في الصفحات السابقة لدراسات أسلوبية للشعر، وهو مأخوذ من المقال الذي "سلف ذكره" حلّل فيه الكاتب بضع قصائد E. E. Commings يقول الشاعر:

a like a
grey
rock wanderin
g
Through
pasture
wom
an creature whom
than
earth hers
elf
could
silent more no
be

ومضمونها: هيكل المرأة مثل صخرة رمادية اللون تمشي "تتجول دون هدف" في المرعى والكرة الأرضية نفسها لا تكون أكثر صمتاً منها.

يقول الكاتب في تحليلها:

إن الأبيات ناقصة من الناحية النحوية، فهي تشتمل على التركيب الاسمى الموسع والذي ينقصه الفعل الأساسي أو المسند، ورغم ذلك كلّه يؤدى هذا التركيب الاسمي "أو الاسمية كما يقول الكاتب" وظيفته في أداء المعنى، فهو يقدم وصفاً رمزياً بدلاً من أحداث أو أوصاف متحرّكة ـ وعنصرا الفكرة والشكل مدمجان بعضهما مع بعض ويمثلان انحرافات "كمنجز" المنتقاة.

والطريق المعروف للتعامل مع الجمل الناقصة هو أن نفترض أنها يمكن أن تعاد صياغتها، ويستكمل نقصها بأقرب العناصر النحوية لهذه الجمل فبالنظر في مكونات هذه الأبيات وبغض النظر عن التقلبات، تبدو لي ثلاث جمل كامنة فيها: جملتان بسيطتان وجملة مركبة.

فالجملتان البسيطتان هما:

١- a woman creature is like a grey rock: هيكل المرأة مثل صخرة رمادية اللون.

٢- she (or it) is wandering through pasture هي "أو الصخرة" تمشي في المرعى.

ويمكن الربط بين هاتين الجملتين باسم موصول، فتصبحان جملة واحدة رئيسية والجملة الثالثة جملة مركبة وهي: earth herself could not be more silent than her الكرة الأرضية لا تكون أكثر صمتاً منها.

وهذه الجملة أيضاً تنصب في الجملة الرئيسية ـ وبهذا تصبح الجمل الثلاث تركيباً اسمياً والفعل الأساسي وهو "be " حذف لتوفير الانسجام في القصيدة ـ والأسماء الموصولة تلعب دور التوضيح والوصف وتبدو أنسب وسيلة هنا لهذا الغرض ـ وتتكثف الأبيات بالحذف والاسمية، وذلك لأن الفعل "be " يمكن فيه احتمالات ... فحذفه لا يحدث خللاً كبيراً وبالإضافة إلى ذلك أنه أدخل فيها أيضاً مرة أخرى و حذف "be " عندما يؤدي وظيفة أداة الربط وسيلة قوية من وسائل إحداث الخيال القوي المؤثر للوصف وقد لجأ إليها شعراء القرن العشرين.

ويزداد الإبهام "بسبب الاختصار في استخدام الأسماء الموصولة" في فهم المرأة والصخرة: فهل المرأة تتجول في المرعي؟ أو الصخرة الرمادية تمشي فيها؟ ويصعب تحديد ذلك لأن اسم الفاعل wandering وضع بين تركيبين اسميين ويمكن إسناده إلى كليها، فلفظه wander تطلب الفاعل الحيّ، ولكن موقع اسم الفاعل wandering يقوى إسناده صخرة ويجعلها فاعلاً ممكناً وكلا الاحتمالين ينشأ أن من انحرافات فأحدهما يتعارض مع الصورة، والثاني يبدو في تركيب غير مسموح به في اللغة.

والإبهام هنا يشير إلى عدم وضوح الصورة، وربما لأجل البعد، والسكوت أيضاً يوحي بالبعد ويشير إلى قليل من الحركة، وحتى معنى اسم الفاعل wandering [1] وقيمته الدلالية حدّدت بإسناده إلى صخرة رمادية، فالانطباع الكلي يبدو في صورة الركود.

ومن خصائص "كمنجز" أنه ينتقي الأفعال بمهارة ويستخدمها استخداماً فنياً بارعاً حيث تقل فيها صفة الحدث، فالفعل الأساسي "be" محذوف، ويؤدّي وظيفته في داخل الأدوات الأخرى و "be" المذكور والذي تنتهي به هذه الأبيات ليس له موقع من الجملة. وهذا العنصر الأخير فقط "أي وجود be" يؤكد على الاتجاه الوصفي مشيراً إلى جميع الأماكن التي حذف منها "be" أو التي فيها مقدَّرة، ولم يكرّر في سطح الجملة "حسب الاستنتاج الذي أقدّمه" يتكامل عديد من المستويات اللغوية في تغيير موقع كلمة "like" وهو تغيير غير مسموح به حسب القواعد المألوفة:

---

١ - لهذه اللفظة دلالات في الإنجليزية مثل: التنقل من بلد إلى بلد آخر دون هدف أو تخطيط ومثل الضلال والانحراف عن السبيل السوىّ ويقال في الإنجليزية: Wandering Jew ويُراد به شخص أسطورى يهودي حكم عليه بالطواف حول الأرض حتى مجيء المسيح ثانية إلى هذا العالم جزاءً له على هُزئه به يوم صلبه، و ربما يريد الكاتب بتحديد دلالة الكلمة تقليل الحركة والتحرك منها!

فنرى تأخير woman creature حيث ذكرت في وسط الجملة و ربما لمراعاة وجودها في وسط المرعى، ويلي ذلك كتابتها مطبعياً ومعجمياً، فهي مكتوبة في الوسط وعدد الكلمات والسطور التي قبلها وبعدها متساوٍ ـ "٩/٨ كلمات" "٦ سطور".

وفي المستوى الصوتي يتميز التقسيم التالي بإحداث تأثير صوتي:

wom

an creature whom[1].

وفي المستوى التركيبي يسمح هذا التغيير woman creature أن تسبقها أدوات الوصف المقارنة و تلحقها والتي تعطي انطباع التوازن للسياق الذي يكاد ينحرف عن اعتداله و مركزية التركيب الاسمي تؤكد على الهدوء والاتزان.

فجميع هذه الخصائص من حذف وتغيير في مواقع الكلمات، يؤدي وظيفتها في ربط المستويات التركيبية والدلالية والبصرية بإحداث انسجام داخلي، فلم ترد هذه الخصائص صدفة بل إنها مهمّة جداً، و وثيقة الصلة بالتركيب، وتخدم المعنى أيضاً وهو: رسم صورة امرأة في حقل، والتقطت هذه الصورة في لحظة معيّنة.

* * * *

١ – يقول الكاتب معلقاً على هذا في الهامش استنتج نورمان فرايدمان من دراسته لهذا الشاعر وخاصة من دراسته لتجزئة الكلمات عند كمنجز "مثل: hers/elf–wom/an....." أنه يصوّر في هذه القصيدة امرأة ريفية من نساء نيو هيمبشائر New Hampshire.